مغارات الفراشيح بالظهرة بمستغانم

دراسة تاريخية و أثرية

Caves of the Ferashih in Dhahra, Mostaganem

Historical and archaeological study

قرمان عبدالقادر *

أستاذ محاضر قسم –أ- جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

تاريخ الاستلام: 2022/11/08 تاريخ القبول: 2024/05/19 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى التركيز على إحدى الجرائم البشعة التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي في مغارات الفراشيح بمنطقة الظهرة بولاية مستغانم، والتي حدثت من الفترة الممتدة من يوم السابع عشر إلى العشرين من شهر جوان من عام 1845م، حيث أننا تتّبعنا وقائع هذه المحرقة الأليمة من خلال استقراء مختلف المصادر التاريخية التي أشارت إلى أحداثها بالتفصيل، والمتمثلة أساسا في كتابات بعض الرحالة الأجانب وكذلك تقارير القادة الفرنسيين الذين عايشوا الجريمة بكل مراحلها وتفاصيلها، بالإضافة إلى كتابات الصحافة العالمية التي تفاعلت مع هذا الحدث التاريخي وساهمت بشكل فعّال في فضح الاحتلال الفرنسي أمام الرأي العالمي، الذي أراد التستر عن هذه الجريمة بطمس الأدلة المادية، لكنه فشل بكل مرارة ونجحت الصحافة في نشر وقائعها، مما خلق ذلك ضجة كبيرة في الساحة السياسية والإعلامية الدولية، كما أننا اعتمدنا على جمع الأدلة المادية الأثرية بمختلف أنواعها من الموقع الأثري، والتي مازالت شواهدها محفوظة إلى غاية اليوم، حيث أننا حاولنا توثيقها من خلال الدراسة الميدانية، التي ساعدتنا في وصف المغارة وما بقي فيها من أدلة مادية وكذلك أخذ الصور الفتوغرافية قدر المستطاع، وهي من الأهداف المسطرة التي نسعى إلى تجسيدها من خلال هذه الورقة البحثية، بكل شفافية ومصداقية علمية.

كلمات مفتاحية: محرقة.، الظهرة.، الأدلة الأثرية.، مغارات.، مستغانم.

* **المؤلف المرسل:** عبدالقادر قرمان، **الإيميل:** abdelkader.karamane@univ-mosta.dz

Abstract:

The article focuses on one of the heinous crimes committed by French colonial in the caves of Al-Frachih in Dahra Mostaganem, from the seventeenth to the twentieth June 1845 AD. We mention in details the events of this massacre byextrapolating the different hitorical sources which are the writings of some foreign travelers, the reports of French leaders who lived through all stages and details, of the crime in addition to the international press' writings that reacted to this historical event and effectively contributed to exposing the French occupation in the world, when this french colonial wanted Covering up the crime by obliterating the material evidence, it bitterly failed and the press succeeded in publishing its facts, all of these previous events led to a huge uproar in the international political and media arena.

We also relied on collecting all kinds of material evidence from the archaeological site, the evidence of which is still preserved until now , we olso try to document it through the field study, which helped us describe the cave and its remained material evidence, as well as taking photographs as much as possible. It is olso one of our main goals that we want to achieve it through this research paper, with all transparency and scientific credibility.

Keywords: Holocaust, el dahra, Archaeological ividence, Caves, Mostaganem.

Résumé :

Cet article vise à se concentrer sur l'un des crimes odieux commis par l'occupation française dans les grottes d'Al-Frahih dans la région de Dahra à Mostaganem, qui a eu lieu du dix-sept au vingt juin de l'année 1845 après JC. Nous mentionnons en détail les événements de ce massacre en extrapolant les différentes sources historiques que sont les écrits de certains voyageurs étrangers, les récits de dirigeants français qui ont vécu toutes les étapes et tous les détails, du crime ainsi que les écrits de la presse internationale qui ont réagi à cet événement historique et a efficacement contribué à exposer l'occupation française dans le monde, alors que ce colonial français a voulu couvrir le crime en oblitérant les preuves matérielles, il a lamentablement échoué et la presse a réussi à publier ses faits, tous ces

événements précédents ont conduit à un énorme tumulte dans l'arène politique et médiatique internationale.

Nous nous sommes également appuyés sur la collecte de toutes sortes de preuves matérielles du site archéologique, dont les preuves sont encore conservées jusqu'à présent, nous essayons également de les documenter à travers l'étude de terrain, qui nous a aidés à décrire la grotte et ses preuves matérielles restées, ainsi que de prendre des photos autant que possible. C'est aussi l'un de nos principaux objectifs que nous souhaitons atteindre à travers ce document de recherche, en toute transparence et crédibilité scientifique.

Mots clés :Holocauste, El dahra, Les preuves archéologiques, Les grottes, Mostaganem

- **مقدمة**

تعرضت الجزائر في سنة 1830م لغزو الاحتلال الفرنسي، حيث أنه استغل ضعف القوات البحرية الجزائرية لشن حملته العسكرية العدائية على البلاد، فراح يصول ويجول عبر فرق جيشه الكثيرة في المدن والقرى من أجل إخضاعها لسيطرته، لكن هذه الاعتداءات قوبلت بمقاومة شديدة وشرسة من طرف الجزائريين في كامل ربوع الوطن، إذ أنهم كبّدوا الاحتلال خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وبالمقابل قام جيش الاحتلال الفرنسي بالتسّلط على أرزاق الجزائريين وأملاكهم، من أجل كبح قوة المقاومة وقطع الإمدادات عن الثوار بمساعدة الخونة، فأمام هذا الخطر الداهم اتخذ الكفاح القومي شكلا آخر وهو "حرب المناظلين" من أجل إرجاع كرامة الجزائريين وحقوقهم، فقد عرفت ساحة القتال بروز مجموعة من المقاومين الأبطال نذكر منهم على وجه الخصوص الأمير عبد القادر وأحمد باي وكذلك "الثائر بومعزة" وغيرهم، فهذا الأخير وقف في وجه جنرالات فرنسا ولقنهم دروسا لا تنسى في التضحية من أجل الدفاع عن النفس والوطن، بدعم من الأهالي الذين وضعوا أبنائهم وممتلكاتهم وقفا تحت تصرفه، مما دفع بكتائب الموت الفرنسية إلى ارتكاب جرائم فضيعة في حق الجزائريين، كان من بينها محرقة الفراشيح التي تعد كمثال حي، يبرز صورة فرنسا الاستدمارية الحقيقية، وتشكك في شعاراتهم التي تنادي بنقل التحضر إلى هؤلاء الشعوب وإخراجهم من ظلمات الجهل والتخلف التي يعيشونها. لقد كانت هذه الجريمة مؤلمة جدا، إلى حد لا يمكن وصفه، نظرا لبشاعتها وكثرة عدد الضحايا الذين قضوا فيها. ومن خلال هذه الورقة البحثية سنتعرف على خبايا وحقيقة هذه المجزرة، فما هي وقائع وأحداث محرقة الفراشيح، وكيف تفاعل الرأي العام الوطني والدولي مع ضحاياها؟ وفيما تتمثل الأدلة المادية الأثرية التي تشهد على هذه الجريمة؟

1. الدراسة التاريخية:

1.1 السياسة العسكرية الفرنسية اتجاه المقاومة في الجزائر:

لقد كان رد الاحتلال الفرنسي بقوة لا متناهية حيال المقاومة الشرسة التي قوبل بها من طرف الأهالي، فراح يحاول شلها وإيقافها بكل ما أوتي من قوة، وباستعمال كل الطرق والسبل التي تمكنه من ذلك، متخذا شعار "القتل وسفك الدماء بدون رحمة ولا شفقة"، وكان على رأسهم الجنرال السفاح "بيجو Bugeaud "، الذي تولى حكم الجزائر سنة 1841م وبقي إلى صيف 1847م، وخلال هذه السنوات سلك سياسة القهر والعنف نحو الجزائريين وسياسة الحرب والإبادة للمقاومة ممثلة عندئذ في الأمير عبد القادر وكثير من المقاومين، في كل ربوع الجزائر. (سعد الله، 1992،ص288)

إن أسلوب القهر الذي طبقه "بيجوBugeaud " بكل قوة أدى إلى تدجين العديد من القيادات الجزائرية في المدن والأرياف معا، كما أدى إلى ارتكاب أفظع الجرائم ضد السكان مثل جريمة "غار الفراشيح" بالظهرة، وقد شمل أسلوب التدجين الطرد من المدن لكل من يشتبه فيه بالولاء للأمير، وحمل عقيدة المقاومة للعدو، والاشتباه في الولاء له. (سعد الله، 1992،ص231)

ونتيجة لكل هذه المناورات العسكرية الجبانة، فقد عملت "الطوابير الجهنمية" التابعة لـ "بيجو" على تمديد الحرب لمدة تزيد على أربع سنوات، حيث أسلمت البلاد للتقتيل والتدمير، كما لو أنّ السنوات الثلاثة عشر من الحرب المتواصلة لا تكفي (الأشرف، 1983،ص333) وهنا يدخل الغزو الاستعماري مرحلته الرهيبة، التي شهدت عددا من مجرمي الحرب ومن المنظرين لسياسة الإبادة وتجميع الأهالي، وهم " العقيد بيليسييه Pélissier " المشهور "بنظرية الخنق والتقتيل"، حيث أن السلطات الفرنسية بعد وفاته كرمت إجرامه بإطلاق اسمه على إحدى بلديات ولاية مستغانم، تسمى حاليا بـ"صيادة"، وللأسف الشديد مازالت هذه التسمية متداولة إلى غاية اليوم بين السكان، دون أن تقوم السلطات المحلية بالتنويه بحقيقة هذا المجرم. و كذلك "مونتانياك Montagnac" الذي أعطى للنخبة من جيشه اسما رهيبا هو "جوّالة الموت" و "سانت أرنو" المتلذذ بإحراق الأهالي في المغارات، و "ريشار" صاحب نظرية "تجميع الأهالي"، ومن الجدير بالذكر أن الأسماء الثلاثة الأولى، وكذلك أسماء غير هؤلاء، قد أعطيت رسميا لعدد من القرى الجزائرية الهامة كأنها سبَّة للضمير الأخلاقي، ومن يدري فلعل مدنا أخرى ستحمل- لا قدر الله- أسماء "ماسو" و "بيجار" و "دوكاس" وغيرهم من سفاكي الدماء ومعذّبي الشعوب".(الأشرف ، 1983،ص ص333، 335)

لقد ضرب "بيجو Bugeaud" مثلا آخر في سياسة القهر التي اتبعها ضد الجزائريين، والتي أحرز بموجبها على لقب (قاهر الجزائر) وعلى عصا المارشالية، ونعني بذلك المجزرة الرهيبة التي وقعت في منطقة "أولاد رياح"[7] بغار "الفراشيح" في ناحية الظهرة- وقد ذكر الرحالة "هاينريش فون مالتسان" هذه القبيلة باسم آخر وهو قبيلة "بني رامة"، وهو المصدر الوحيد الذي ذكرها بهذا الاسم، وللعلم فإن اسم أولاد رياح مازال متداولا إلى غاية اليوم في المنطقة- وقد اصطلح المؤرخون الأجانب على هذه المغارات بـــ "**محرقة مغارات الفراشيش**"، التي وقعت في أيام 17- 18- 19 -20 جوان من عام 1845م، وكان جلاد هذه المجزرة

هو العقيد "بيليسييه Pélissie "، الذي سيصبح جنرالا، ثم مارشالا أيضا فيما بعد، وحاكما للجزائر في وقت الستينات. (سعد الله، 1992،ص238)

1. 2 أسباب وقوع المحرقة:

إن السبب الرئيسي الذي أدى إلى وقوع هذه المجزرة هو رفض الخضوع للاحتلال الفرنسي ومقاومته بشتى الطرق، ويذكر المؤرخون أن معركة كبيرة وقعت خلال يناير 1845م بناحية الظهرة، تُعرف عند الفرنسيين بانتفاضة الطرق الصوفية، شاركت فيها على الخصوص: الطريقة القادرية والرحمانية والدرقاوية والطيبية وفروعها، وكانت قبيلة أولاد رياح من بين المشاركين فيها، وانتقاما منها قام "بيليسييه" بغزوها، حيث أنه حطم أملاكها وأحرق ما وجد منها طبقا لسياسة الأرض المحروقة، التي جاء بها سيده "بيجو Bugeaud ". (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص241)، (سعد الله، 1992،ص238).

كما أن الرحالة "هاينريش فون مالتسان" يؤكد ذلك في مؤلفه "ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا" ويُرجع أسبابها إلى مناصرة قبائل جبال الظهرة للثائر بومعزة، الذي قاد المقاومة في منطقة الظهرة، وفي هذا الصدد يقول: "قام القائد الفرنسي سانت أرنو بحملة عسكرية ضده في ربيع سنة 1845م، وفرق جموعه المضطربة الصفوف في سهل الشلف،... ثم خرجت إليه ثلاثمائة طوابير يقودها سانت أرنو، وبيليسي، ولاموسيير، وطاردت القبائل الثائرة، التي تراجعت أمام قوة هذه الطوابير حتى مهاوي الظهرة، فخضعت جميع القبائل الثائرة لكثرة القوات الفرنسية، وبذلك انتهت ثورة بومعزة. ولم تبق منها سوى قبيلة واحدة وهي قبيلة بني رامة، التي رفضت الخضوع والتنازل عن حريتها فسار بيليسي خلفها، وقد عجز السلاح وفن الإقناع عن إخضاع هذه القبيلة العنيدة، ونجحت في ذلك أفضع القوى الطبيعية وهي النار، وكانت السكينة التي أرغمها هذا العنصر الرهيب على بني رامة، أبدية، هي سكينة المقبرة بأتم معنى الكلمة. فقد حرقت هذه القبيلة البطلة في مغارات فريشيح. فأنهت هذه المأساة المريعة الحرب ضد بومعزة...". (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص242)

1. 3 وقائع الحادثة حسب الرحالة والمصادر التاريخية:

1. 3. 1 المحرقة بقلم الرحالة هاينريش فون مالتسان:

لقد كانت الحملة التي شنها العقيد "بيليسييه Pélissier " على المنطقة سببا في فرار قبيلة أولاد رياح[14] في 17 يونيو من سنة 1845م، للنجاة بأرواحهم وممتلكاتهم نحو المغارات في سرية تامة للاحتماء بها، وكان عددهم أكثر من ألف شخص (1000)، رجالا ونساءً وأطفالا مع حيواناتهم وأمتعتهم (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص243)، لكن استطاع هذا السفاح أن يكتشف أمرهم، إذ أنه كان يطلق على أفراد القبيلة اسم "الثوار" (بما في ذلك الأطفال والحيوانات !)

حاصر "بيليسييهPélissier" وجنوده المغارات من جميع الجهات وطالب القبيلة بالاستسلام، فأجابته بالرصاص، وألحقوا بهم أضرارا بالغة، فتكبدت كتائب كاملة عند مرورها بهذه المغارات خسائر فادحة[16]،

ولكن العقيد الشجاع، رافع راية الحضارة والإنسانية، جلب أكداس الحطب والأعشاب وأحاط بها الغار وأخذ في إيقادها عند المداخل، ليجبر القبيلة على الخروج والاستسلام أو الموت اختناقا بالدخان. ومضى اليوم الأول والثاني 17-18 من الشهر دون خروج أحد، ولما حلّ الليل جلب العقيد تعزيزات الجيش التي كان قد تركها وراءه وجلب المزيد من الحطب وضيّق الحصار على الغار، وضاعف على إيقاد النار، فتعالت بسرعة أصوات الحيوانات الصاخبة، وتأوهات الرجال المكتومة وصراخ الأطفال المحتضرين[17]. (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص243)، (سعد الله، 1992،ص238). (أنظر الصورة رقم 4).

1. 3. 2 المحرقة حسب الروايات المصادر الفرنسية:

تذكر الروايات الفرنسية على لسان "كلاراف"، دي بيتيني" بإدراج وصفا مُعاصرا للمجزرة من خلال كتاب مؤرخ في سنة 1859، بعنوان (شاهدت وكتبت ما كتبت سنة 1845م في قوله: "أن الليل كان مقمرا، وأّن عملية المراقبة كانت سهلة، بحيث لا يمكن أن يفر من الغار أحد دون اكتشافه. ولكن أضيفت إلى ضياء القمر لهيب النار، الذي تزيده نسمات ليل يونيو تصاعدا ولمعانا، ومع ذلك فقد فرّ عربي من الغار عن طريق الوادي[18] المتصل بالغار ، بعد أن أصيب برصاصة ووصل إلى قايد "الزريفة"، سيدي "العربي" ليخبره بأن القبيلة في حاجة إلى الماء. وتفنن العقيد الفرنسي في تكويم الحطب عند مدخلي الغار مع مطلع النهار، وزاد لهيب النار اشتعالا والدخان كثافة". (Busquet,1907 ,p148)

ويواصل وصف الأحداث بقوله: "واستمر ذلك طول النهار الثاني رغم أنّ القايد "سيدي العربي" أخبر العقيد بأن القبيلة تموت عطشا، ورغم وجود مفاوضات بين الحين والآخر، فإن العقيد بيليسي أصر على الاستسلام أو الموت خلال ربع ساعة ! وعندما انتهت ربع الساعة، ضاعف العقيد من عملية "التدخين" في مداخل الغار، وكما قال بعضهم "عملية تحميص العرب وشواؤهم على النار بدم بارد"، وارتفعت سحب الدخان أكثر مما مضى حتى غطت أعلى الصخور بالجبل ! وتواصلت العملية طوال الليلة الثانية. ورغم أنّ العقيد قد أصابه العياء في منتصف الليل فإنه أعطى تعليماته باستمرار التحميص والشواء للنساء والأطفال. وقبل طلوع النهار بنحو ساعة وقع انفجار مهول في قلب الغار، وكان ذلك إعلانا باختناق ما يزيد عن ألف شخص في ذلك الغار، الذي تحاصره النيران والدخان منذ يومين وليلتين، وتحيطه الذئاب الجائعة لفرائس الإنسان !. (Busquet,1907 ,p148)

كما وصف المؤرخ "روسي" « C. Rousset » هذا المشهد الرهيب، ومدى خطورة الجرم الذي ارتكبه هذا العلج السفاح في حق الإنسانية بالعبارات التالية: "كان الحريق قد وصل إلى أمتعة اللاجئين. وفي الليل خُيل للجنود أنهم يسمعون... ضجة لا تكاد تبين، وصيحات خافتة، ثم ساد صمت عميق. وفي وقت مبكر من الصباح استطاع بعض الرجال أن يخرجوا من المغارات فسقطوا مخنوقي الأنفاس أمام الحرس، وكان الدخان الذي انتشر في المغارات كثيفا مؤذيا، إلى حد أنّ الجنود لم يتمكنو في بداية الأمر من الدخول، على أننا كنا بين الحين والآخر نرى مخلوقات بشرية مشوهة تخرج من المغارات زحفا على البطون، فيحاول آخرون ممن بقي متمسكا بمبادئه إلى آخر رمق أن يمنعوهم من الخروج... وحينما تمكنّا في آخر الأمر من

زيارة ذلك الجحيم بعد أن خمدت فيه النيران، عدّدنا أكثر من خمسمائة من الضحايا ما بين رجال ونساء وأطفال، وقد أصيب جميع الحاضرين بوجوم شديد لهول الفاجعة"(Rousset, sd, pp21, 23) . والحقيقة أن قوله "أكثر من خمسمائة من الضحايا" يعني ما يزيد على الألف.

4.1 نتائج المحرقة:

1.4.1 من خلال كتابات الرحالة هاينريش فون مالتسان:

لقد قام " هاينريش فون مالتسان" بإعطائنا معلومات مفصلة عن نتائج هذه المحرقة وبكل مصداقية، وذلك في قوله: "لقد كان المشهد الذي تراءى في صباح اليوم التالي للمهندسين، الذين دخلوا المغارة بأمر من بيليسيير في منتهى الفضاعة: كان هناك في مدخل المغارة ثوران لم يحترقا تماما، وقد ربط العرب رأسيهما ببرانيسهم، ولعلهم فعلوا ذلك حتى يحولوا بين الحيوانين، الذين تسببت النار في سعرهما، وبين إلحاق الأذى بهم. وإلى جانبهما جثة امرأة يبدو أن الموت استعجلتها وهي تحاول أن تحمي طفلها من حنق ثور ثالث. فقد كانت لا تزال ممسكة بقرني الثور. وكانت هنا أجسام شوهتها نزعات الموت بصورة مريعة، وقد انبعث من أفواهها خيوط من الدماء السود، وهناك جثة شيخ القبيلة المهيب، لاشك أن جواده وقع عليه فقتله، فقد وجدت جثته تحت جثة الجواد. وداهم الموت حبيبين وهما متعانقان، فاتخذا صورة من صور الدعة والشاعرية وسط هذا المشهد المريع. وقد احتفظت ملامح الموتى بمظاهر الرعب والفزع والآلام التي يعجز الوصف عنها، حيث طبعها الموت فوقها بقوة. وهناك فتاة صغيرة انطبع فوق جبينها حافر جواد عربي مسعور، فقد كانت مضطجعة بجانب الجواد، الذي تسبب في قتلها حين كان يحتضر ويلوح بأقدامه فيما حوله، وهي نصف محترقة. وقد عثر على جثة عجوز في أعمق زوايا المغارة، كانت تبدو وكأنها تقرب جرة الماء من فمها. ولم تكن ذراعاها قد سقطتا لأنها كانت قد أسندت مرفقيها إلى ناتيئ من الصخرة، ففاجأها الموت وهي تحاول أن تطفئ عطشها الذي سببه اللهيب والدخان. كانت الأرض المسودة من الدخان تحتضن الرجال والنساء والخرفان، الأطفال والماعز، والأسلحة والألبسة، وكلها محترقة ملفوحة، أو استحالت رمادا. هكذا انتهت قبيلة بني رامة، فقد لفظت أنفاسها الجريئة في هذه المغارات المخيفة، وهي تعاني عذابا أليما يعجز القلم عن وصفه." (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص244) (أنظر الصورتان رقم 3 و4)

يواصل " هاينريش فون مالتسان" كلامه بتأثر كبير ومتعاطفا مع الضحايا، حتى دفعه الأمر إلى رثائهم في قوله:

يا بني رامة ! هكذا أرادت
أن تختار الفردوس مثوى
لها في هذه الأرض

"وقد استحوذ الرعب والفزع على كثير من الغالبين المحاربين، الذين كانوا يسخرون عادة من العواطف الرقيقة، حيال هذا المشهد الفظيع، ولاشك أن الجنود الشبان لم يكونوا يتصورون أن مآل الحرب الرهيبة يمكن أن يصل إلى هذا الموت المريع". (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص245)

1. 4. 2 من خلال تقارير الحرب الفرنسية:

إن التقرير الرسمي الذي كتبه "بيليسييهPélissier" عن جريمته وأرسله إلى سيده "بيجوBugeaud" والذي بدوره سيوصله إلى وزير الحربية، قد أخفاه هذا عن زملائه وعن البرلمانيين بعض الوقت، حتى تهدأ العاصفة التي أثارها، وقد تحدث فيه عن هلاك أكثر من 500 شخص (سعد الله، 1992،ص239)، ومع ذلك فالأخبار تسربت. ومعظم الكتاب متفقون على أنّ عدد المختنقين قد تجاوز الألف (1000)، غير أنّ بعضهم يجعل الرقم 750، وبعضهم يجعله ألفا، وبعضهم 800.

وحين لم يصدق العقيد "بيليسييهPélissier" ما رواه له عدّادوه عن عدد المختنقين قام هو بنفسه بعملية العد، فإذا بالرقم وصل إلى 600 شخص. (سعد الله، 1992،ص239)

ولاحظ أحد الكتاب أن هذا الرقم لم يأخذ في الحسبان الأطفال الرضع الذين كانوا ملتصقين بأثداء أمهاتهم أو داخل ثيابهن، كما أنه قد أهمل عدّ الجثث التي كانت متراكمة فوق بعضها، كما لاحظ كاتب آخر أن الغار لم يفرغ كله من المختنقين لعدهم، بل بقي فيه بعض المخلفات البشرية !

لقد كان المنظر الذي وجدت عليه الجثث رهيبا ومرعبا حرك كل الضمائر، وجعل بعضهم يقول انه منظر فضيع لم يحدث مثله في التاريخ(سعد الله، 1992،ص239). وقد علقت (التايم) على ذلك بقولها إنها "مذبحة فضيعة ... جعلت حتى المتوحشين يخجلون..." (الأشرف ، 1983،ص331)، فقد هاجت الحيوانات داخل الغار ورفست الأطفال والنساء، وكان الرجال يحاولون وقفها فيمسكونها من قرونها أو من أرجلها. وكم من رجل وُجد متشبثا بقرني ثور دفاعا عن طفله وزوجه ! وكم من طفل وجد ملتصقا بصدر أمه والدم ينزف من فمه وفمها ! وقد لاحظ الملاحظون عندئذ أنّ الجثث كانت عريانة دليلا على الاضطراب والانتفاض العنيف الذي أصابها قبل الموت، بينما كان الدم يخرج من الأفواه، ولم يخرج من الغار إلاّ حوالي ستين شخصا مات أربعون منهم في الحال، وعشرة بقوا في حالة خطيرة وعشرة استطاعوا التغلب على الموت. ومع ذلك فقد اندفع جنود "بيليسييهPélissier" و "بيجوBugeaud" ينهبون الموتى !، ويقول أحد المعاصرين للجريمة أن الجنود أخذوا كل الأشياء التي وجدوها مع المختنقين، حتى البرانيس الملطخة بالدماء، والأشياء الذهبية وغيرها.

أما وزير الحربية الفرنسي (سولت Soult) الذي تتبعه الجزائر إداريا، فقد حاول إخفاء حجم الجريمة بالتكتم عن التقرير الذي جاءه من "بيليسييه"، وعدم نشره في جريدة (المونيتور يونيفرسال moniteur universel) كما جرت العادة، وامتدح ممثله في الجزائر "بيجوBugeaud " على صنيعه، وأما "بيجو" فقد امتدح العقيد "بيليسييهPélissier" على ما قام به نحو قبيلة أولاد رياح.

وقد ذكر المؤرخ سعد الله أبو القاسم أنه عندما بلغ الخبر مجلس النواب الفرنسي أعرب أعضاؤه عن قلقهم وطلبوا من وزير الحرب، المارشال "سولت Soult" إيضاحات، فماذا كان رد فعل الجيش الفرنسي وقائده "بيجوBugeaud "؟ إن بيجو" الذي كان منطقيا مع نفسه وفيا للعقائدية العسكرية، التي لقّنها لأعوانه وجنوده، ما كان منه إلاّ أن احتج لدى الوزير، فكتب إليه يقول: "يؤسفني أن أراك متحاملا بدون أي تحفظ على سلوك الكولونيل بيليسيPélissier"، وأرى لزاما على نفسي أن أعتبر الكلمات الصادرة عن النواب في جلسة 11 يوليو غير لائقة، لأنها ستحدث أثرا سيئا في الجيش، وأنا أرى بأن مراعاة القواعد الإنسانية تجعل الحرب في إفريقيا تمتد إلى ما لا نهاية كما أنّ الثورة فيها لن تخمد أبدا..." (سعد الله، 1992،ص240)

1. 4. 3 رد الصحافة الفرنسية على المحرقة:

قامت صحيفة "الديبا Débat" تمدح ضباط الجيش على عملهم في الجزائر، كما قامت صحيفة (الجزائر الفرنسية Algérie Française)[27]، التي كان يصدرها "بيجوBugeaud " في الجزائر بوصف الجريمة وأثنت على مرتكبيها. ولا ضرورة إلى القول بأن صحافة المعارضة قد لامت "بوجو Bugeaud" و "بيليسييهPélissier" وحملتهما المسؤولية وقالت بعضها أنه كان بإمكان الأخير أن ينتظر بعض الوقت لأن القبيلة كانت ستخرج لا محالة مادامت في حاجة إلى الماء، وأنه فعل فعلته بدم بارد وبتعمد واضح، لأن عملية التدخين كانت تجري بانتظام وتفنن. (سعد الله، 1992،ص240)

أما رد الصحافة العالمية فتصدرتها جريدة التايم (لندن)، عدد 14 يوليو 1845م. والتي ذكرها المؤرخ أبو القاسم سعد الله

ويذكر بعض المؤرخين أنّ "بيليسييه" قد مات (بعد عشرين سنة) وأشباح قتلى غار الفراشيش تطارده !

2. الدراسة الأثرية:

2. 1 الموقع الجغرافي للمغارات:

تقع مغارة الفراشيح في أولاد رياح التابعة إداريا لبلدية النكمارية، بدائرة عشعاشة ولاية مستغانم، وهي تبعد عنها بحوالي 10كلم، تتميز بتضاريسها الوعرة، بحيث يصعب العثور عليها والوصول إليها لوقوعها في واد عميق وعر المسالك، وكذلك بُعدها عن الطرق البرية المعروفة في هذه المنطقة، حيث تحفه أشجار صغيرة من الصنوبر البري والعرعار، أما تكوينها الجيولوجي فهو عبارة عن مزيج من الحجارة الجيرية الكلسية الصلبة التي تكونت عبر الأزمنة التاريخية. .(أنظر الصورة رقم 1)

نصل إلى المغارة بعد النزول عبر منحدر صعب وخطير يؤدي إلى الوادي الذي يوجد به مدخلها الرئيسي، وهي مازالت قائمة يمكن الدخول إليها لكن بصعوبة كبيرة، لوجود أحجار كبيرة تسد المدخل بسبب التفجير الهائل الذي تعرضت له وكذلك ومخلفات الحرق الذي أدى إلى انهيار أجزاء منها، وكذلك

التخريب الذي تعرضت له من من طرف كتائب العقيد "بيليسييه Pélissie " لمنع الاحتماء بها مرة اخرى. والشيء الذي لاحظناه خلال زيارتنا لهذا الموقع التاريخي والأثري الهام في سنة 2011م، والذي يشهد على أبشع ما ارتكبه الاحتلال الفرنسي في الجزائر، أنه يعرف إهمالا كبيرا من طرف السلطات المحلية، إذ لا نجد إشارة أو لافتة تُعرّف به وبالأحداث التي وقعت فيه، أو نصبا تذكاريا يخلد أرواح الشهداء الذين استشهدوا بداخل هذه المغارات، وهذا ما أدى إلى جهل وعدم معرفة الكثير من أهل المنطقة بهذا المكان.(أنظر الصورتان رقم 1 و 2)

2.2 أصل الكلمة:

لم نستطع معرفة معنى كلمة الفراشيح رغم أننا بحثنا في مختلف المصادر التاريخية والجغرافية وحتى في كتب الرحالة والأسرى، حيث أننا لم نجد لها ذكرا، والمرجح أنها كلمة بربرية أمازيغية أطلقت على المنطقة، بحكم أن المنطقة كانت تستقر فيها قبيلة عشعاشة البربرية الأمازيغية، وهي بطن من بطون مغراوة الزناتية، وفي الفترة الحالية مازال سكانها يرددون على السنتهم الكثير من الأسماء الأمازيغية، ومن خلال تصفحنا لمختلف المصادر والمراجع المذكورة في البحث، سواءً كانت باللغة العربية أو الأجنبية، أن أغلبها تستعمل كلمة "الفراشيش"، ما عدا "هاينريش فون مالتسان" الذي استعمل كلمة "فريشيح"في مؤلفه "ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا"، وهي الكلمة الأقرب إلى التسمية المحلية التي يستعملها أهل المنطقة على هذه المغارات وهي "الفراشيح". كما أطلق عليها أيضا تسمية"جزاير الظهرة Djazair Dahra

3.2 وصف المغارات:

قام الرحالة "هاينريش فون مالتسان" بتقديم وصفا دقيقا للمغارات أثناء زيارته لها، وذلك في قوله: "وفي اليوم الذي تلا وصولي إلى مازونة قام مضيّفي الكريم برحلة معي إلى مغارات الصخور المذكورة فريشيح، الواقعة في جبال الظهرة، مسرح تلك الحادثة المروعة أيام الثورة. وتقع هذه المغارات في منطقة صخرية منعزلة، من الصعب جدا الوصول إليها. وكنا قد وصلنا إليها بعد ثلاث ساعات أو أربع، قطعنا خلالها فوق مطايانا طريقا صاعدة طورا بين مرتفعات الصخور المنحدرة بجبال الظهرة، وهابطة طورا آخر عبر مجاري الوديان الجافة، فبلغنا جدار صخرية عظيمة، كأنها قصر سحري تقيم فيه قوى جهنمية، ينتصب بكل جلالته السوداء. ولم تكن حول الصخور نبتة واحدة، باستثناء ما يرى هنا وهناك من خرشف بري، ينشر أوراقه البيضاء على شكل نجوم أو خلع شجري، يمتد فوق الأرض بفروعه الخضراء وأغصانه البيضاء، وفي حاشية القصر الصخري السفلي لاحظنا شقوقا لا تزال مسودة من أثر الدخان الذي غمرها قبل مدة: إنها مغارات فريشيح الشهيرة".

حقيقة أنّ هذا الوصف المقدم للمغارات يدل على أن الرحالة قد قام فعلا بزيارتها، وقد اكتشفنا ذلك من خلال زيارتنا الميدانية لها، حيث كان أول شيء لفت انتباهنا من أعلى الهضبة هو مدخلها الرئيسي الذي يقع في الجنوب الغربي من الوادي، حيث أنه يتموضع في أسفله وهو ضيق جدا، والمداخل الأخرى القريبة تقع في الشمال الشرقي. وعند وصولنا عنده تبين لنا أنه متسعا نوعا ما، وذلك نتيجة لشدة

الانفجار الذي وقع فيه، كما لاحظنا تصدع جدرانها وآثار الحرق عليها، التي هي عبارة عن بقع سوداء تشهد على كثرة الحطب المستخدمة في الحرق، وعند ولوجنا إلى داخلها لاحظنا أجزاء كبيرة من سقف المغارات على الأرض، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على شدة الانفجار الذي حدث في داخلها، مما تسبب في حدوث انهيار كبير. .(أنظر الصورة رقم 8)

لقد قامت فرقة بحث من جامعة مستغانم وبالتعاون مع مديرية المجاهدين بمستغانم بعملية تنقيب سطحي غير عميق بالمغارة، مما مكّن من العثور على هياكل عظمية للشهداء، تتمثل في عظام الأطراف والأصابع والجماجم، وهي حاليا محفوظة في متحف الموقع .(أنظر الصورة رقم 7)

4.2 الوضعية الحالية لموقع مغارات الفراشيح:

كان موقع مغارات الفراشيح إلى غاية سنة 2011م في حالة إهمال وتسيب من طرف السلطات المحلية لجهلهم لقيمة هذا الموقع التاريخي وما حدث فيه خلال فترة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، نظرا لعدوم وجود التوعية والإشهار والتعريف به، وهذا ما دفعنا رفقة نخبة من الأساتذة والمثقفين إلى تنظيم يوم دراسي حول المحرقة بتاريخ 06 جويلية 2010، بالتنسيق مع جمعية نشاطات الشباب"إقرأ" والمركز الثقافي لدائرة عشعاشة بولاية مستغانم، والذي كان له أثر كبير على ساكنة المنطقة الذين عرفوا لأول مرة أسرار وخبايا مغارات الفراشيح، كما كان لمخرجات هذا اليوم الدراسي من خلال التوصيات التي رفعت إلى والي الولاية والسلطات المحلية الذين أخذوها بعين الاعتبار ، حيث تم برمجة تهيئة شاملة للموقع التاريخي بفتح طريق معبد يؤدي إليه وكذلك إقامة نصب تذكاري يخلد تضحيات أبطال قبيلة اولاد رياح، ومتحف صغير يحفظ رفات الشهداء الذين قضوا داخل المغارة، بالإضافة إلى فتح مسلك آمن للزوار حتى باب المغارة حتى يقفوا ويشاهدوا المجزرة التي ارتكبها المحتل الفرنسي في حق الجزائريين . (أنظر الصور رقم5 و6 و 7)

الخاتـــــمة:

توصلنا من خلال هذه الورقة البحثية إلى مجموعة من النتائج وهي على النحو الآتي:

- تعد محرقة الفراشيح من أشهر الجرائم التي ارتكبها الاحتلال الفرنسي في حق الشعب الجزائري، فقد كانت نتائجها وخيمة، ووصمة عار مازالت تلاحق الاستدمار الفرنسي، والتي تعبر تعبر عن الأساليب اللاإنسانية والبشعة التي اتبعها قادته في السيطرة على الأهالي والمقاومين، بحيث أنه ضرب عرض الحائط كل القيم الإنسانية المتعارف عليها منذ القدم في التعامل مع الشعوب، فرغم أنّ أهالي قبيلة أولاد رياح كانوا يدافعون عن أنفسهم وأرزاقهم- وهو حق مشروع- إلاّ أنّ القائد بيليسي أراد إخضاعهم لسلطته رغما عنهم، وباستعمال أبشع طريقة في معاقبة هؤلاء المتمردين في نظرهم. ألا وهي الحرق والخنق والحصار، متناسيا أن المغارات كانت تحتضن في ظلماتها عددا تعدى الألف من أطفال ونساء وشيوخ عُزل، لا ذنب ولا حول ولا قوة لهم.

- كسبت هذه الحادثة المروعة تأييدا غير مسبوق من طرف قادة الجيش الفرنسي، لأنهم يعتبرونها الطريقة الوحيدة في إذلال الشعوب المستعمرة والرضوخ لسلطتهم، وفي المقابل عرفت تنديدا كبيرا وتعاطفا من طرف شعوب العالم والإعلاميين، بل حتى من الفرنسيين أنفسهم، ولعل تنديد مجلس النواب بها لخير دليل على ذلك.

- لم تقم السلطة الفرنسية آنذاك والتي تدعي احترامها لحقوق الإنسان بعزل السفاح بيليسييهPélissier ، الذي ارتكب الجريمة أو تقدم له تحذيرا أو إنذارا بعدم تكرارها، بل كرمته ورفعت من مرتبته العسكرية وبعد موته خلدت أعماله الخبيثة ببناء مدينة تحمل اسمه في مستغانم.

- كان من نتائج هذه المحرقة كثرة عدد الشهداء الذين قدروا بحوالي ألف وخمسمائة شهيد حسب شهود العيان وكذلك المؤرخين والرحالة، وحتى تقارير الجيش الفرنسي.

- وعلى ضوء ما سبق يمكن القول بأن ما حدث ما هو إلاّ جزء من "سياسة السيف" التي سار عليها "بيجوBugeaud" وعرابه "" وغيرهم في الجزائر، تدجين وإرهاب وقتل جماعي واحتجاز الرهائن وتجويع وتعطيش وإقامة المحتشدات للاعتقالات.

- قامت السلطات المحلية والولائية بتهيئة الموقع التاريخي، الذي صار وجهة للزائرين من مختلف ربوع الوطن لزيارته والترحم على الشهداء الذين مازال الكثير منهم تحت الأنقاض داخل المغارة. كما تم برمجة الموقع ضمن الخرجات الميدانية لتلاميذ المدارس ومنتسبي الكشافة الإسلامية، للتعريف به وبالشهداء وكذلك تبيان حقيقة المستدمر الفرنسي وغرس الروح الوطنية.

- تعتبر هذه المغارة من أقدم المواقع الأثرية في منطقة مستغانم، حيث انها تاريخها يرجع إلى فترة ما قبل التاريخ، حسب المتخصصين في علم الآثار.

شرح المصطلحات:

- **قبيلة أولاد رياح:** سماها "هاينريش فون مالتسان" بقبيلة "بني رامة"، وهو الوحيد الذي ذكرها بهذا الاسم، وللعلم فإن اسم أولاد رياح مازال متداولا إلى غاية اليوم في المنطقة، وحسب المراجع التاريخية فتعود اصولهم إلى قبائل بني هلال حسب عبد الرحمن بن خلدون، والتي استقرت في منطقة مستغانم، نذكر منها قبائل مجاهر في سهل سيرات.

- **الدرقاوية:** هي طريقة صوفية مغربية متفرغة عن الشاذلية، وأول من دعا إلى مذهب الدرقاوية هو الشريف إدريس من جماعة العمرانيين، الذين استوطنوا في الشمال الغربي من مدينة فاس ويدعى علي بن عبد الرحمن الجمل أو الجمّال، الذي كان أحد الفقهاء البارزين، درس التصوف على يد أبي عبد الله حبوس، توفي سنة 1194هـ ورغم أن الغربي الدرقاوي كان مؤسس الطريقة ومنظمها، إلا أنها تنسب لأحد أسلافه وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بأبي درقة، لذلك قيل "درقاوي" و "درقة" تعني الترس من الجلود. (بونقاب، 2001- 2002، ص37)، (التليدي، 2000، ص207)

- **الطيبية:** مؤسس هذه الطريقة القوية هو المرابط "مولاي الطيب"، وقد كانت من الطرق الصوفية المنتشرة في المغرب. (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص241)

- **بومعزة:** اسمه الحقيقي "محمد بن عبد الله" أصله من المغرب، وكان ينتمي إلى الطريقة المنتشرة في المغرب كله المعروفة بإخوان مولاي الطيب، قاد بومعزة مقاومة شرسة في منطقة الظهرة ضد القوات الفرنسية، لكنه في الأخير أخمدت ثورته ووقع في أيدي الجيش الفرنسي، ليعيش ابتداءا من ذلك الحين حياته المملة في السجون بفرنسا، لمزيد من المعلومات (هاينريش فون مالتسان، 2008، ص ص241، 242)

الملاحق:

الصورة رقم (1): الوادي الذي تقع فيه المغارات

الصورة رقم (2):المدخل الرئيسي للمغارات في الجهة الجنوبية الغربية

الصورة رقم (3):آثار الحرق تظهر على جدران المغارات

الصورة رقم (4):لوحة زيتية محفوظة في متحف اللوفر بباريس تصورلنا معاناة الأهالي أثناء عملية الحرق
المرجع: الأرشيف الوطني آكس أو بروفانس- فرنسا

الصورة رقم (6): تهيئة المسلك المؤدي إلى المغارات

الصورة رقم (8): مخلفات انفجار المغارات من الداخل

المراجع:

1)- أبو القاسم سعد الله: **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص228.

2)- هاينريش فون مالتسان: **ثلاث سنوات في غربي شمال إفريقيا**، ترجمة أبو العيد دودو، ج1، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص .242

3)- الأشرف مصطفى: **الجزائر، الأمة والمجتمع**، ترجمة حنفي بن عيسى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

4)- بونقاب مختار: **تاريخ الطريقة الدرقاوية في الجزائر**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة وهران، 2001- 2002.

5)- التليدي عبد الله بن عبد القادر: **المطرب بمشاهير أولياء المغرب**، ط3، دار الأمان، الرباط، .2000

6)- مقابلة مع الأستاذ دراجي عبد القادر، متخصص في علم الآثار، ما قبل التاريخ، بتاريخ: ماي 2012.

7)- Busquet (R): **L'affaire des grottes du Dahra, 19-20 juin 1845**, revue Africaine, offices des publications universitaires, Alger, 1907.

8) - Rousset T.H.C: **La conquête de l'Algérie**, 1841-1857.